سورة الناس

مدنية وهي سبع آيات مع البسملة

هذه السورة من السور التي اختُلف في زمن نزولها، ويرى الباحثون أنها مدنية (فتح البيان)، غير أن هناك روايات تقول إنها نزلت في مكة، وروايات أخرى تقول إنها نزلت في المدينة. فبدلاً من أن نأخذ بعض هذه الروايات ونترك بعضها من دون دليل نقول: إما أنها نزلت في مكة، ثم نزلت في المدينة، أو أنها مدَنيّة فقط، لأن القرآن اختتم في المدينة المنورة.

لقد بينتُ عند تفسير سورتي الإخلاص والفلق أن السور الثلاث الأخيرة تقدّم في مجموعها خلاصة القرآن عند ختامه، كما أن سورة الفاتحة تقدم ملخصه عند بدايته. ولدى تفسير سورتي الإخلاص والفلق قد ذكرت بالتفصيل ما تحويانه من موضوع مشابه لمضمون آيات الفاتحة، أما سورة الناس فموضوعها يشابه مفهوم كل من: الرحمانية، والرحيمية، ومالك يوم الدين، ولا الضالين. فكلمات ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ و﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ تشير إلى صفة الله الرحمن. لقد بيّن سيدنا المسيح الموعود عليه السلام أن الرحمانية هي الإحسان الذي يكون بدون مقابل من عمل. ولا شك أنها صفة واسعة النطاق جدا، وفيضها يصيب كل مخلوق، ولكنّ تجلّيها الكامل يتم في الإنسان، لأن كل ما يُنزله الله على المخلوقات الأخرى من فضل، لا يزال يرتقي ويرتقي حتى يظهر في ذروته وكماله في الإنسان. فالحق أن سعة الرحمانية إنما تنكشف في الإنسان، إذ إنها لا تنكشف حقًا في كون الله تعالى يُنعم على الإنسان من دون عمل، وإنما تنكشف في كونه تعالى يُحسن إلى عدوِّه أيضا. إن سعة رحمانية الله تعالى لا تنكشف من خلال تربيته لكبش أو ثور أو حصان، وإنما تنكشف من خلال تربيته لشخص مثل أبي جهل الذي يعارضه ويكفر به، أو

فرعون الذي يسبّه ويشتمه ﷻ. لا شك أن الإنسان أيضا يحسن إلى الآخرين، ولكن رحمانية الله تعالى تشمل أعداءه أيضا، كما قال الله تعالى ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء:٢١).. أي: أننا نساعد المؤمنين والكفار جميعًا، فعطاء ربك ليس محظورا على قوم أو طائفة. فثبت أن الإنسان هو المظهر الكامل لصفة الله الرحمن. كم كان أبو جهل يعادي الله تعالى! ومع ذلك لم يزل الله تعالى يحسن إليه. وكم كان فرعون يعادي الله تعالى! ومع ذلك شملته رحمانية الله. فقد تقبّل الله دعاءهما في آخر لحظاتهما أيضا، فإن فرعون آمن وهو مشرف على الموت.. أي أنه دعا لنجاته، وكانت رحيمية الله تقتضي ألا يستجاب دعاؤه، ولكن رحمانيته اقتضت استجابة دعائه، فقال الله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾(يونس: ٩٣)، أي: اليوم ننقذ جسدك. أما أبو جهل فقد دعا الله تعالى: إنْ كان ما يقوله محمد هو الحق مِن عندك فأَمْطِرْ علينا حجارة من السماء (الأنفال:٣٣-٣٦)، فقال الله لملائكته: حسنًا، أَمْطِروهم بالحجارة. فترى أن الله تعالى قد استجاب دعاءهما الذي دعوا به عند الموت لغبائهما بحيث لا ينفع الدعاء، فما الذي ينفع أبا جهل أن يُمطر بحجارة من السماء؟ أو ما الذي ينفع فرعون أن يُنقذ بدنه فقط؟

فثبت أن رحمانية الله تعالى تتجلى حقًا من خلال الإنسان فقط، مع أنها تشمل المخلوقات كلها من حيوانات وحشرات وديدان، حيث يسبّ الإنسانُ ربَّه ﷻ، ومع ذلك يمدّ اللهُ بالدم لسانَه الذي يسبّه به. فثبت أن الإنسان هو المظهر الكامل لرحمانية الله.

أما كلمة ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ فتشير إلى صفة الله ﴿الرَّحِيمِ﴾ في سورة الفاتحة، لأن المِلك هو الذي ينعم إنعامًا متتاليًا مستمرًا لأمد بعيد، فإننا نرى بأعيننا أن البعض لا يزالون يعيشون حتى اليوم على ضيعات وهبهم إياها الملوك المغول في الهند. دَعْ عنك الملوك المغول جانبا، فزمنهم قريب جدا، فإن البعض لا يزالون يعيشون على ضيعات منحهم إياها الملوك الأفغان الذين سبقوا الملوك المغول، بل هناك من يعيشون على ما تدرّ عليهم ضيعات قد منحهم إياها الراجات الهندوس قبل ألف

سنة، بل ألفين. فثبت أن الرحيمية تشبه فيوض الملِك. لقد قال داود عليه السلام: "كُنْتُ فَتىً وَقَدْ شِخْتُ، وَلَمْ أَرَ صِدِّيقًا تُخُلِّيَ عَنْهُ، وَلاَ ذُرِّيَّةً لَهُ تَلْتَمِسُ خُبْزًا" (المزامير ٣٧ : ٢٥)، مما يعني أن الله تعالى يحفظ ذرية عباده الصالحين من ذُلّ السؤال. فثبت أن قوله تعالى ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ يشير إلى صفة الله ﴿الرَّحِيمِ﴾ المذكورة في الفاتحة.

أما قوله تعالى ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ فهو إشارة إلى قوله تعالى ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ في سورة الفاتحة، لأن المالك الأخير هو المعبود الحقّ.

ثم إن محتوى سورة الناس كلها وثيق الصلة بالموضوع المذكور في قوله تعالى ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾.. أعني أن مضمونها يشير إلى الفتنة المسيحية وحماية الله للإسلام منها. لقد بيّن المسيح الموعود عليه السلام بناءً على حديثٍ نبوي أن المسيحية هي أكبر مظهر للضالين (التحفة الغولروية، الخزائن الروحانية ج١٧ ص٢٢٩). والفرقُ بين ﴿الضَّالِّينَ﴾ و﴿المَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ أن المغضوب عليهم يحاولون إكراه الناس على قبول شيء بقوة العصا، أما "الضالين" فيحاولون إغواءهم بالنقاش والمحاججة، وذلك كما يفعل القسيسون اليوم، إذ يقومون بدعاية أن المسيحية ديانة جميلة ورائعة، وأن الإسلام يقسو على المرأة وما إلى ذلك من مطاعن. إنهم يأتون إلى أهل الإسلام كالخنّاس ويوسوسون في قلوبهم، دون اللجوء في الظاهر إلى جبر أو قسوة. وهذا ما يشير إليه لفظ الخنّاس إذ معناه: مَن يوسوس مختبئا. إن الفيلسوف الأوروبي مختفٍ عن أنظار الناس، ولكنهم يفسُدون بمطالعة كتبه. إنه لا يمارس الجبر، ولا يضرب الأعناق بالقوة، بل يوسوس في صدور الناس، من الجِنّة والناس.. أي سواء كانوا من الكبار أو من البسطاء. فالكتب التي تُنشر في أوروبا ضد الرأسمالية، يقرأها فقراء المسلمين، فتُنفِّرهم من الإسلام، وتُكرِّهُه إليهم، إذ يظنون بالفعل أن الإسلام قد حافظ على حقوق الأغنياء أكثر من حقوقهم. كل هذا ليس إلا مشهدًا لتحقُّق قول الله تعالى ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

فثبت أن فحوى سورة الفاتحة قد أُعيد ثانيةً في السور الثلاث الأخيرة من القرآن الكريم، مما يعني أن القرآن قد خُتم على الأساس الذي بُدئ به.

والعلاقة الثانية لهذه السورة هي مع سورة المسد. لقد أخبر الله تعالى في سورة المسد عن خروج عدو للإسلام ومصيره، أما سورة الناس فبيّن الله تعالى فيها علامات هذا العدو والوسائل التي يهاجم بها الإسلام.

والعلاقة الثالثة لهذه السورة هي مع آخر آية من سورة الفلق، حيث أخبر الله تعالى في قوله ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أنه سيظهر حاسد كبير للمسلمين، لذا عليهم أن يدعو الله تعالى أن يحفظهم من شرّه، أما سورة الناس فتخبر أن هذا الحاسد الخطير هو الأمة المسيحية، وأنها ستهاجم الإسلام بكذا وكذا من الطرق والوسائل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٤﴾

التفسير:

١: لقد بينتُ عند تفسير سورة المسد أنها تنبئ عن خروج أمة تحارب الإسلام في الزمن الأخير للقضاء على هذا الدين الذي جاء به النبي ﷺ، بينما قد علَّم الله تعالى المسلمين في آخر آية من سورة الفلق الدعاءَ لحمايتهم من هجمات هذه الأمة، فأخبر الله تعالى أن حاسدا كبيرا سيظهر في الزمن الأخير بُغْية الاستيلاء على بلاد الإسلام بالقضاء على الحكومات الإسلامية، بل يتمنى ألا يبقى في الدنيا مسلم، وأنّ هذه الأمة الحاسدة ستملك كل قوة، بينما يكون المسلمون عاجزين عن التصدي لها، لما هم فيه من ضعف وانحطاط، فأمَرهم الله تعالى عندها أن يستعيذوا به ليحميهم من هذه الفتنة الداهية، فيهيئ من الغيب أسبابا لحماية الإسلام من هجمات هؤلاء الأعداء، ولكي يستردّ مجدَه الغابر بعد ضعفه. والآن قد ذكر الله تعالى في سورة الناس ثلاثا من صفاته ﷻ لنستعيذ بها من تلك الفتنة، فقال ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾.. أي: قولوا: نستعيذ بالله الذي

هو رب الناس ومَلِكُهم ومعبودهم. وواضح أن ما ننسب إلى الرب عند الاستعاذة به منه هو ما نريد اتقاء شرّه. فمثلا إذا هاجمَك كلبٌ فتستصرخ قائلا: يا صاحب الكلب، أي: أنقذني يا صاحب الكلب من شرّه. أو إذا كان أحد قد ربّى أسدًا مثلا، فخفتَ هجومه، ستصرخ قائلا: يا صاحب الأسد، أي: أنقذْني يا صاحب الأسد من أذاه، وبالمثل عندما نقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ فإنما نعني: نستعيذ بالله تعالى من خصال الناس التي لها علاقة بالربوبية والمالكية والإلهية. وربوبية الناس تنكشف بالديمقراطية، التي هي موصومة ببعض المساوئ، وملوكيتهم تظهر بسلطتهم على بعض البلاد الأخرى، وفيها أيضا بعض المفاسد، وألوهيتهم تظهر بالتيار اللاديني العام الذي يتولد في الأمة الملحدة والذي ينشر الإلحاد في الأمم الأقلّ تقدمًا من الأولين. ومعروف أن الله تعالى وحده المتصف بالربوبية والملوكية والألوهية حقًا، أما الناسُ فيتصفون بها على سبيل الظليّة فقط. فالأمر الرباني بأن نستعيذ برب الناس وملك الناس وإله الناس، يتضمن إشارةً إلى تعرُّضنا لبعض الشدائد التي تتعلق بالربوبية والملكية والألوهية، وبتعبير آخر؛ إن بعض الأمم ستستغلّ هذه الصفات استغلالا مشينا، وتُلحِق الضرر بالناس سيّما المسلمين، فلذلك قد ذكّرنا الله تعالى هنا أنه هو رب الناس وملك الناس وإله الناس حقيقة، فعليكم أن تستعينوا به بواسطة صفاته الثلاث هذه قائلين: يا رب، إن الذين جعَلْتَهم رب الناس وملك الناس وإله الناس على سبيل الظلّيّة، يستغلّون هذا المنصب استغلالا مشينا، ويضرّون الناس بدلاً من أن ينفعوهم، فاحْمِنا من ربوبيتهم وملوكيتهم وألوهيتهم.

والآن إذا درسنا الواقع وجدنا أن هذه السورة ترسم لنا صورة شعوب الغرب اليوم، فهذه الأمة الحاسدة لا تطيق رؤية قوة المسلمين، وتريد محو اسم الإسلام من وجه الأرض، فاتقاءً من فتنها قد علّمَنا ﷻ هذا الدعاء، فأمَرنا أولاً أن نقول ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. وصفة الربوبية تغطّي كل ما يتعلق بحاجات الناس، وما يُسمّى اقتصاد البلاد، فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إشارة إلى أن هذه الأمة الحاسدة إذا خرجت، فإنها تُدمِّر أولاً اقتصاد المسلمين وتجاراتهم. إنها لا تهاجمهم

بجنودها أولاً، بل ستصل إلى بلاد الإسلام ببضائعها وتجارتها، فتفتح هناك البنوك وغيرها، وتستولي على اقتصادها أولاً. وبالفعل نجد أن الشعوب الأوروبية قد وصلت إلى كل البلاد بهذا الطريق أولاً، فقد ذهبت إلى البلدان الأخرى بالسلع التجارية، ثم استولت على اقتصادها بالتدريج. لقد عرضتْ على الدول الإسلامية قروضًا رِبَوية، وهكذا أضعفتْها باستمرار، وبتعبير آخر إنها قضت على نظام الربوبية الذي أقامه الإسلام. فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ تعليم رباني لنا بأنكم إذا أردتم النجاة من فتنتهم الاقتصادية، فادعوا الله تعالى أن يحميكم من شرهم هذا.

ثم علَّمنا الله تعالى أن نقول: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، وفيه إشارة إلى أن الشعوب الغربية ستثير في بلاد العالم فتنة الملوكية والحُكم بعد إثارة الفتن الاقتصادية. وبالفعل نجدها قد دخلت في أراضي الأمم الأخرى باسم التجارة أولاً، ثم أرستْ حُكمها فيها واستولت عليها. هذا ما فعلوه في كل البلاد الإسلامية؛ في مصر وإفريقيا والهند وغيرها. لقد ذهب هؤلاء إلى إفريقيا في أول الأمر بالأَساور والسُّبْحات الزجاجية الملوّنة اللامعة البرّاقة، فظنَّها أهل إفريقيا السذّج ثمينةً، واشتروها مقابل الذهب والأحجار الكريمة من ألماس وغيرها. ثم بعدها استولى هؤلاء على أراضي تلك البلاد. هذا ما فعلوه في الهند وإيران وبلاد العرب وتركيا وغيرها، حيث أقاموا هناك أولاً مراكز تجارية لمدّ نفوذهم، وكانت خطوتهم التالية استعمار تلك البلاد وإرساء حكمهم فيها، وهكذا قضَوْا على الحضارة السياسية الإسلامية.

ثم قال الله تعالى ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾، وفيه إشارة إلى أن شعوب الغرب بعد استعمار مختلف البلدان ستخرج منهم فتنة أخرى، وهي الفتنة الدينية، حيث يبدأ هؤلاء دعاية مسمومة لزعزعة إيمان المسلمين، ويقدّمون فلسفة جديدة وتعليمًا جديدا للقضاء على الدين. سوف ينخرون عقائد الطلبة المسلمين من خلال التعليم الذي يروِّجونه في كلياتهم وجامعاتهم، وينشرون منشورات تُري الإسلامَ على أنه دين غير معقول لكي ينفر الناس منه.

إذن، إن الله تعالى يقول هنا: أيها المسلمون، عندما تتعرضون لهذه الأحوال فعليكم أن تستعيذوا بالله الذي هو رب الناس وملك الناس وإله الناس، أي عليكم

أن تدعو الله قائلين: ربِّ، إنهم يريدون القضاء على الربوبية والملوكية والألوهية الصحيحة التي تريد نشرها في العالم، فهيِّئْ من عندك أسبابًا تقضي على فتنتهم، لتقوم في العالم الربوبية والمالكية والألوهية الصحيحة ثانيةً.

٢: لقد بيّن الله تعالى في قوله في السورة السابقة ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أنه في زمن ضعف الإسلام في الزمن الأخير، سيقيم الله شخصًا لإصلاحه واسترداد مجده، ويُظهر لتأييده آيات سماوية، منها كسوف الشمس والقمر، أما هنا في سورة الناس فأخبر الله تعالى أنه ستخرج في زمن هذا المصلح ثلاثة فتن كبرى: الفتنة العائلية، والفتنة الحكومية، والفتنة الدينية. والحق أن العائلة والحكومة والدين إذ تؤدي إلى رقي الناس فإنها تؤدي إلى دمارهم أيضا، ولذلك قال النبي ﷺ: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ" (البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين). فالأمّ التي تفدي ولدها بروحها وحياتها وتسهر على راحته كي لا يصاب بالبرد والزكام وغيرها من الأمراض، مضحية براحتها ونومها، يمكن أن تقتله ببثّ الأفكار الوثنية في قلبه. والأب الذي يكدح في الخارج ليكسب لقمة العيش لابنه، حتى لا يتردد في إلقاء نفسه في التهلكة من أجله، يمكن أن يسبّب له الدمار الأبدي بتعليمه إياه ما يُبعِده عن الله تعالى. والعائلة التي تعمل جاهدة لعلاجه عند مرضه، والأُمة التي تفخر به وتساهم في توعيته وتربيته، هي نفسها يمكن أن تهلكه بإفساد دينه. والحال نفسه بالنسبة إلى الملوكية، فالمَلِكُ الذي يحافظ على نفوس الرعايا وأموالهم وعزتهم، أو الدولةُ التي تسعى جاهدةً لراحة المواطنين وتوفير المرافق لهم، يمكن أن تهلكهم دينيًا. والحال نفسه بالنسبة للألوهية أيضًا، إذ إن آلهتهم -أعني زعماءهم الدينيين- الذين يفكّرون ألف مرة لمصلحتهم الدينية، ويسعون لتفوّقهم وإصلاحهم في الظاهر، يمكن أن يدمروهم في الحقيقة. فالقسس والكهان الهندوس وغيرهم من القادة الدينيين الذين يعلّمون قومهم كثيرًا من الحسنات، ويوصونهم بالعمل بها -فينهونهم عن الكذب والغشّ والخداع والقتل والخيانة، ويحثّونهم على الالتزام بالصدق والأمانة، إذ يسعون لإصلاح بعض منهم- فإنهم يدمّرون آخرين في الوقت نفسه. ومع أنهم يبنون صرح

الحسنات في الدنيا -بحَثِّهم على العفو قائلين: مَنْ لَطَمَكم عَلَى خَدِّكم الأَيْمَنِ فَحَوِّلوا لَهُ الآخَرَ أَيْضًا، وحَثِّهم على حَمْلِ أعباء الفقراء، وعلى التحلّي بطِيب القلب ودماثة الأخلاق، ويأخذون التبرعات من أثريائهم وينفقونها على فقرائهم- فإنهم يدمّرون صرح الخير هذا بقولهم أن يسوع المسيح هو ابن الله؛ ومن أجل ذلك قد علّمَنا الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾، أي: ربّ، إن زعماء الدين يقومون بتربية القوم بلا شك، إلا أن ربوبيتهم سيف ذو حدين؛ يقطع أعداءك، ويقطع عنقي أيضا، ويا رب، إن ملوك الدنيا يحافظون على حياتي ومالي وعزّي وكرامتي، ويعملون على راحتي ورخائي، ولكنهم قد يدفعونني إلى الحضيض ويدمّرونني ببعض جهودهم الخفية، ويا رب، هناك قادة دينيون لا بد لي من أن أطيعهم -لأن القرآن يبين أن بعض الناس يتخذون قادة دينهم أربابًا من دون الله- وإنهم في الواقع يخدمون الإنسانية، إذ ليس في الدنيا قائد ديني لا يعلِّم قومه ما ينهض بهم، فالناس ليسوا أغبياء حتى يتخذوا لهم قادة دين لا يعلّمونهم أي خير، ومع ذلك قد يصيب المرءَ الشرُّ من قبل القادة الدينيين فيدمرونه. ولكن من هو الرب الذي يأتيك منه الخير دون الشر؟ ومَن هو المَلِكُ الذي يصيبك منه الخير دون الشر؟ ومن هو الإله الذي يأتيك منه الخير دون الشر؟ إنما هو الله وحده، فعليك أن تقول ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾.. أي: أنني أتوجه إلى الله تعالى وحده ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾، معرضًا عن إخوتي وأخواتي ووالديَّ وأقاربي وقبيلتي وقومي. ثم إنني لا أقدر على العيش من دون حكومة، ولكن قد يصيبني الضر منها، لذا أتوجه إلى ﴿مَلِكِ النّاسِ﴾ الذي كلُّ هؤلاء الملوك أظلالٌ له ﷻ. ثم هناك مَن يسمَّوْن أظلال الله في أمور الدين الذين اتخذهم بعض الناس أربابا من دون الله، فيمكن أن يصيبني النفع منهم وقد يصيبني الضرّ منهم، ولذلك أتوجه إلى ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ الذي لا يصيبني منه إلا الخير.

ولو أن المرء قام بهذا الدعاء آخذًا في الحسبان هذا المفهوم للسورة، فلا يمكن أن يتعرض لفتنةٍ من قِبل عائلةٍ ولا مَلِكٍ ولا قائدٍ ديني.

فالله تعالى قد أمرنا بقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ أنه إذا هدّدتكم الحكوماتُ و لم تسمع لقولكم، بل ظلمتكم وأضرَّت بكم، فعليكم أن تتوجهوا إلى بلاطي لأني أنا مَلِكُكم الحقيقي. وإذا ظلمكم أهلُ بلدكم أو قبيلتكم وعائلتكم، فعليكم أن تعودوا إلى بلاطي فإني ربكم، وليست قبيلتكم وعائلتكم إلا في يدي. وإذا حاولتْ القيادة الدينية إضلالكم، فعليكم أن تنيبوا إليَّ لأني إلهكم، وأنا المسئول عن هدايتكم، فلو جئتموني فلن يصيبكم شيء من أضرار الربوبية ولا أضرار الملوكية ولا أضرار الألوهية. فكما أن الأمهات تقول لأولادها: إذا ضايقك أحد فتعال وأخبِرْني، كذلك يعلّمنا الله تعالى ويقول: إني أرسلكم إلى الدنيا، لتعيشوا بين الأقارب والأصدقاء وأهل قبيلتكم وبلدكم، وإنّ هؤلاء يمكن أن يصيبوكم بخيرهم وشرهم أيضا، ولكن إذا أصابكم منهم شر فتعالوا إليّ. ثم تكون هناك حكومات تصيبكم بخير وقد يصيبكم منها شر، فإذا أصابكم منها شر، فتعالوا إلي. ثم يكون هناك قادة روحانيون يسعون لتربيتكم الدينية بحيث قد يضرونكم ويقتلون روحانيتكم بدلاً من أن ينفعوكم، فإذا حدث ذلك فلا تحزنوا، بل تعالوا إليّ، فإني قائدكم الروحي الحقيقي، فإذا جئتموني فلن يلحق بكم ضرر.

باختصار، لقد علّم الله تعالى أمة الإسلام في قوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ دعاءً جامعًا للنجاة من شرّ كل الفتن التي كانت ستنشأ في الزمن الأخير حول الربوبية والملوكية والألوهية.

٣: لقد بيّنتُ عند تفسير سورة الفلق أنها تعلّم الإنسان -إضافةً إلى الأمور الأخرى- دعاءً بأن يحميه الله تعالى من شرٍّ يتعلق بمرحلة خَلْقه أو موته أو خلال الفترة بينهما، أما الآن (في سورة الناس) فقد ذكر الله تعالى مقابل هذه الأزمنة الثلاثة، ثلاثا من صفاته: الربّ والمَلِك والإله، والتي لها صلة بهذه الأزمنة. فصفة الرب تتعلق بزمن الخَلق والولادة، وصفة المَلِكِ تتعلق بزمن الموت، وصفة الإله تتعلق بزمن الحياة، فقال الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إزاء قوله في سورة الفلق ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، وقال تعالى ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ مقابل قوله

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، وقال ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ مقابل قوله ﴿مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾. فالإنسان من حيث ولادته يكون ذا صلة بصفة الربوبية، وهي صفة تعمل باستمرار، لأن عملية خَلْق الإنسان جارية في كل وقت وإنْ تّمتْ ولادته من نطفةٍ أول الأمر، فهو يتغذى كل يوم كي يتولد فيه الدم وتستمر حياته بـه، حتى إن الأطباء يقولون إن جسم الإنسان يتجدّد كلية بعد سبع سنوات. فثبت أن عملية خَلْقه مستمرة كل وقت، ولذلك تستمر ربوبية الله له أيضا كل آن، ولذلك أمره الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.. أي: أستعيذ بالله- الذي تعمل ربوبيته في الناس كلهم ولا تزال تُحدث في أجسادهم تغييرات بعضها تؤدي إلى الشر، وبعضها إلى الخير- من هذا التغيّر الجاري باستمرار مِن أن يدفعني إلى الشر بدلاً من الخير. ثم أمره أن يقول إني أستعيذ بـ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، ذلك أن عملية الموت أيضًا تعمل في الإنسان كل حين، فليس البول والبراز والعرق والشعر والأظافر التي نتخلص منها إلا أجزاء ميتة من أجسامنا؛ إنه موت مؤقت وجزئي يمر به الإنسان. فثبت أن عملية الموت مستمرة في الإنسان، ولذلك قد أمرنا الله تعالى بالاستعاذة بمَلِكِ الناس.. أي نستعيذ به مِن صفة جزائه وعقابه، حتى لا يأتي علينا زمن الفشل، بل يخصنا دائما بنعَمِه وفضله من دون عائق. والحالة الثالثة أن تسوء نية المرء، فيؤثر مصلحته الشخصية، ولذلك قد علّمنا الله تعالى أن نقول ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾.. أي: أستعيذ بالله الذي هو معبود الجميع مِن أن يصيبني خلل كهذا، وإذا أُصبتُ به فلا يدَعني الله تعالى أخرج مِن كنف ألوهيته، فإن هذا يتنافى مع عظمته، فلذلك أتوسل إليه بألوهيته: إلهي، لا تجعل صلتي تنقطع عنك، بل اجعلها قائمة باقية على الدوام. فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ دعاءٌ للاستعاذة بالله تعالى في هذه الحالات الثلاث أيضا.

مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

الوَسْواس: اسمٌ مِن وَسوسَ إليه الشيطانُ، أي حدَّثه ما لا نفع فيه ولا خير؛ الشيطانُ؛ هَمْسُ الصائد والكلابِ؛ صوتُ الحُلْي؛ مرضٌ يحدث من غلبة السوداء ويختلط معه الذهن؛ ويقال لما يخطر بالقلب من شرّ ولما لا خير فيه وسواسٌ. (الأقرب)

الخنّاس: مبالغةٌ مِن خَنَسَ عنه، أي رجع وتنحّى؛ تأخَّرَ؛ انقبضَ. وخنست النخلةُ: تأخرتْ عن قبول التلقيح فلم يؤثّر فيها و لم تحمل في تلك السنة؛ وخنَس القولَ: أساءه؛ وخنَس الشيءَ عنك: ستَره؛ وخنَس إبهامَه: قبَضها. وخَنَس بين أصحابه: استخفى. وخنَس بفلان: غاب به. (الأقرب)

فالخناس ١: الكثيرُ التنحّي والانعزالِ، ٢: الكثيرُ التأخر، ٣: مَن لا يخضع للتأثير مطلقًا، ٤: مَن يخفي الشيء كثيرا، ٥: مَن يختفي عن أصحابه.

الجِنَّة: طائفة من الجِنِّ. والجنُّ خلافُ الإنس، وأصل معنى الجن الاستتار والاختفاء، ومنه الجنين.. أي الولد ما دام في الرحم. والجَنان القلبُ، لاستتاره في الصدر (تاج العروس).

فالجِنّ يعني المخلوقات الخفيّة، وكل ما يختفي عن الأنظار. ومن هنا يُطلق الجن على كبار الناس الذين يعيشون مستترين في بيوتهم ويصعب الوصول إليهم.

التفسير: قوله تعالى ﴿مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ إما أنه متعلق بقوله ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، وعليه فالمعنى: أنه يوسوس في قلوب الناس صغيرهم وكبيرهم

جميعًا، أو أنه متعلق بقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، وعليه فالمعنى: أنني أستعيذ بالله تعالى من شر الذين يوسوسون في قلوب الناس ثم يتأخرون، أو يوسوسون مختفين عن أعين الناس، سواء كان هؤلاء الموسوسون مِن عامة الناس أو من كبارهم، وسواء كانوا ظاهرين أو خفيّين.

لقد بيّنَا من قبل أن الجنّ يُستعمل مقابل الإنس، ويراد به الذين لا يُرَوْن عادةً، بمعنى أنهم يختفون في بيوتهم أو يعيشون في بيوتهم تحت حراسة الحراس، ولا يقابلون العامة. أما الإنس فهم الذين يقابلون الناس عادة. فالجن هم كبار الناس، والإنس عوام الناس أو الذين يختلطون بالعامة. ومن أجل هذه الحكمة كان سيدنا عمر ﷺ قد أمَر وُلاته ألا يأخذ أي منهم حراسًا، لكي يصل إليه الناس بحريّة (تاريخ الطبري ج٥ ص ٦٣)، وذلك كي يظل إنسانًا ولا يُعتبر من الجنّ.

يقول الله تعالى هنا أن الشعوب الغربية ستهاجم الإسلام في الزمن الأخير وتدمّر اقتصاد بلاد المسلمين وتستولي عليها، وتقوم بذلك بمنتهى المكر والخداع، فهي ستقول لهم في الظاهر لقد جئناكم لنعلِّمكم الحضارة وننشر العلوم بينكم، والواقع أنها تريد بثّ الوساوس في قلوبهم، لتنفيرهم من الله ورسوله. وكذلك إنها ستستولي على حكم بلاد الإسلام تحت غطاء مصلحة أهلها، وهي تريد في الحقيقة أن يكره المسلمون دينهم ويتبعوا حضارتها ودينها، ثم إن هذه الشعوب لن تحاول إغواء بعضهم، بل تستهدفهم كلهم، صغيرهم وكبيرهم، ويكون سلاحها هذا ناجحًا لدرجة أن المسلمين سيقعون ضحية لدعايتها حتى يُقضى على حضارتهم.

إن كثيرًا من الأشرار يفعلون بك الشرّ واقفين أمامك، ولكن كثيرًا منهم يختفون بعد مكرهم بك، أو يكيدون بك سرًّا، وهذا هو دأبُ الشعوب الغربية في السياسة وغيرها من الأمور؛ إذ تحتال على أهل البلد الآخر من حيث لا يفطنون

لشرّهم فيهلكون. إنها تؤلّف كتبًا بحجة نشر العلوم، مع أنها تريد بها نشر الكراهية ضد الإسلام أو نشر الإلحاد، وهكذا تُهلك الآخرين وهي جالسة في بلادها.

ومن معاني الوسواس صوتُ الحُليّ، وعليه فقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ يعني: أن شعوب الغرب في الزمن الأخير تقوم بإغواء الناس بإغرائهم بالأموال، ثم إنها ستعمل كالخنّاس.. أعني أنها لن تعطيهم هذه الأموال علانيةً، تحقيقًا لمآربها، بل تبعثها إليهم من حيث لا يعرف الآخرون بها. فعلى المؤمن أن يدعوَ في هذه الحالة أن يحفظه من فتنة هذه القوى الشريرة.

ثم إن الله تعالى قد بيّن بقوله ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أن هذه الأمم سوف تغوي الناس بالمال حينًا عن طريق كبار القوم، وحينًا عن طريق عامتهم، أو أن هذه الأمم ستملك أموالا طائلة تمكّنها من إغراء الأثرياء أيضًا ناهيك عن عامة الناس.

كما أن هذه الآيات تتضمن نبوءة أن هذه الفتن ستُنشَر بتخطيط منظَّم، فلن يشترك الناس في نشرها فردا فردا، بل يحرّض بعضهم بعضا، ويضم إلى صفهم من يحمل أفكارا مماثلة. فالأجير لن يترك عمله وحده عند صاحب العمل، بل يحثّ زملاءه أيضا على ترك العمل عنده، وأصحاب المصانع لن يكتفوا بطرد بعض العمال من مصانعهم فقط، بل ينهون أصحاب المصانع الأخرى عن توظيفهم عندهم، مما يعني أن الأسياد أيضا ينشئون نقابات لهم، والعمال أيضا ينشئون نقابات لهم. ثم إن الحكّام أيضا ينشئون منظمات خاصة لهم، والموظفون أيضا يقيمون تنظيمات خاصة بهم، وكل تنظيم يكون على صلة بتنظيمات مماثلة في البلاد الأخرى.

ثم إن مثيري الفتن ضد الدين أيضا سيعملون في تنظيمات، فإذا كان أحدهم يحمل أفكارا إلحادية مثلاً، فلن يُخفي أفكاره، بل يجمع معه الملحدين الآخرين

فيكوّنون منظمات معلنين أنّ من واجبنا الآن محو العقيدة الباطلة القائلة بوجود إله. كان الملحدون موجودين في الماضي، ولكنهم كانوا يعلنون عن إلحادهم بشكل فردي، ولم يكن لهم منظمات ولا جرائد ولا منشورات، أما في هذا العصر فهناك منظمات لهم في كل البلدان. ثم هناك منظمات لأعداء الإسلام من قسس وغيرهم، بل هناك منظمات للمشايخ الذين لم يستطيعوا أن يتحدوا في الماضي، فيعقدون مؤتمرات واجتماعات. وهذا كله تحقيق للنبأ القرآني المذكور في آخر سورة الناس.

وكما ذكرت من قبل أن الله تعالى قد ذكر في بداية هذه السورة ثلاثا من صفاته تتعلق بثلاث مراحل يمر بها الإنسان، أي ولادته وحياته وموته، حيث أمره الله تعالى أن يدعو دائما أن يظل في كل حالة مستمتعًا بإحدى هذه الصفات الإلهية فلا ينقطع فَيْضُها عنه، أما الآن فأشار بقوله ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ إلى الوساوس والشبهات التي يمكن أن تنتاب الإنسان في هذه الفترات الثلاث، فتقطع صلته عن الله تعالى. فمثلا: يمكن أن يفكر أنه ليس هناك ربٌّ خلَقه، وأنه لم يُخلَق لغاية، أو توسوس له نفسه عن ملوكية الله فيقول: ليس هناك مَن يعاقب ويجزي، أو توسوس له نفسه عن ألوهية الله فيقول: ما الحاجة إلى عبادة الله؟ فهناك وساوس شتى يمكن أن تساوره فتقطع صلته عن الله تعالى؛ ويمكن أن تكون وراءها أسباب مختلفة؛ حينًا بتأثير الكائنات الخفية، أو الأرواح الشريرة، أو بعض الأمراض، أو بعض الأماكن التي تثير الشبهات في القلوب، أو بعض الناس الذين يوسوسون في القلوب، ولذلك قد علّم الله تعالى الإنسان الدعاء بأن يستعيذ به ليحميه من كل هذه المسببات للشكوك والشبهات قائلا: رب، اجعلْ صلتي مع ربوبيتك وملوكيتك وألوهيتك قائمةً على الدوام، فتكون بدايتي جيدة، ونهايتي جيدة، وكل التغييرات في حياتي جيدة. إذن، فهذه الآيات تعلِّمنا دعاءً جامعًا بالفعل.

إن سورة الناس آخرُ سور القرآن الكريم، وهناك احتمال أن يصاب المرء بغرور عند ختْمه لقراءة القرآن فيظن أنه قد صار الآن محفوظا من هجمات الشيطان ومن أي عثرات، ولما كانت هذه أفكارا مدمرة، لذلك قال الله تعالى في ختام القرآن: يا عبدي، لا شك أنك قد نلتَ شرف قراءة القرآن وختمه، ولكن لا تظن أنك صرت الآن محفوظا من براثن الشيطان، كلا، بل لا يزال هناك احتمال لعثارك مع تشرُّفك برؤية رب العالمين وتمتُّعك بفيوض ربوبيته. اعلمْ أن فضل الله ينزل على كل إنسان وفي كل حين، فحذار أن تُصاب بالغرور والعثرة بما حُزْتَه. إذا ختمتَ القرآن الكريم ورأيتَ أفضال الله نتيجة ربوبيته، فاعلم أنه ليس ربك فقط، بل هو رب العالمين، وفيوض ربوبيته تشمل أبسط إنسان أيضا، فإذا أنزل عليك فضلاً من عنده فلا تتكبر ولا تتعثر، بل عليك أن تدرك أنك حين رغبتَ في بركات الله وفيوضه فإنه قد مَنَّ عليك بشيء منها نتيجة ربوبيته لك، ولكنك قد لا تكون قد تطهرتَ طهارة كاملة، لذا عليك أن تدعو الله تعالى دائما: أستعيذ بالله الذي هو رب الناس جميعا، وأن تقول له دومًا: رب، لقد أنزلتَ عليَّ نِعمَك ناقصةً بسبب حالتي الناقصة، ومن الصعب –والحال هذه– أن تصير عاقبتي الحسنى للأبد، فأتوسل إليك أن تتغمدني برحمتك الكاملة، وتنقذني من كل عثرة.

ثم إن مِن قرّاء القرآن مَن ينالون عند ختْمهم إياه درجةً أسمى من درجة العامة، فيصبحون من خدّام الله.. أي يتحلون بالصلاح والورع بحيث يشبهون الموظفين الحكوميين حالةً ومكانة، ومع ذلك تظل هناك إمكانية عثارهم، ولذلك أمر الله مثل هذا الإنسان أن يدعوَ قائلا: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.. أي: ربّ، أستعيذ بك من أن أُصاب بالغرور وأبتعد عنك حين تمنّ عليّ بأفضال خاصة، كما يخصّ الملوكُ مدراءَ أمورهم بأياد خاصة، فأتوسل إليك أن تصلحني ببركة صفة ملوكيتك، وتوفّقني لأن أعامل الرعايا كما تريد، حتى لا أكون من المغرورين الظالمين المتمردين.

ثم إن العلاقات بين الملوك وموظفيهم محدودةٌ مقارنةً مع العلاقات التي تكون بين الخالق والمخلوق، إذ لا حدود لها، وحيث إن قارئ القرآن إذا دخل في عداد عباد الله الخواص، ونزلت عليه أفضاله أكثر من الآخرين، كان هناك احتمال أن يُصاب بالكبرياء، فينحرف عن هدي القرآن الذي بسببه نال هذا المقام، فيُحرَم فضل الله تعالى، ولذلك قد أمره أن يستعيذ بإله الناس؛ أي: إلهي، أتوسل إليك بألوهيتك وعبوديتي، ألا تدَعني أُعرِض عنك، بل اجعلْني دائما من عبادك. آمين.